المدح ﴿والذين معه﴾ أصحابه ﴿أشدّاء على الكفار رحماء بينهم﴾ جمع شديد ورحيم ونحوه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين واغلظ عليهم بالمؤمنين رؤف رحيم، وعن الحسن رضي الله عنه بلغ من تشدّدهم على الكفار وأنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء، وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله وكذلك التقبيل قال: لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه، ولا يده ولا شيئًا من جسده وقد رخص أبو يوسف في المعانقة من حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدّد وهذا التعطف فيتشدّدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى، والمعونة والاحتمال والأخلاق السجيحة ووجه من قرأ أشدّاء ورحماء بالنصب أن يصبهما على المدح أو على الحال بالمقدّر في معه ويجعل تراهم الخبر ﴿سيماهم﴾ علامتهم وقرئ سيماؤهم وفيها ثلاث لغات هاتان والسيمياء، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة الساجد من كثرة السجود وقوله تعالى ﴿من أثر السجود﴾ يفسرها أي: من التأثير الذي يؤثره السجود وكان كل من العليين عليّ بن الحسين زين العابدين وعليّ بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك يقال له ذو الثفنات لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير، وقرئ من أثر السجود ومن آثار السجود وكذا عن سعيد بن جبير هي السمة في الوجه.

فإن قُلْتَ: فقد جاء عن النبي ﷺ: «لا تعلبوا صوركم»[1]. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود، فقال: إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشن صورتك[2] **قُلْتُ:** ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ونحن فيما حدث في جبهة الساجد الذي لا يسجد إلا خالصًا لوجه الله تعالى، وعن بعض المتقدّمين كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير فما ندري أثفلت الأرؤس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق وقيل هو صفرة الوجه من خشية الله، وعن الضحاك ليس بالندب في الوجوه ولكنه سفرة وعن سعيد بن المسيب ندى الطهور وتراب الأرض، وعن عطاء رحمه الله استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل كقوله: من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار[3] ﴿ذلك﴾ الوصف ﴿مثلهم﴾ أي: وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعًا ثم ابتدأ فقال ﴿كزرع﴾ يريدهم كزرع وقيل تم الكلام عند قوله ذلك مثلهم في التوراة، ثم ابتدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله: ﴿كزرع أخرج شطأه﴾ كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾[4]، وقرئ الأنجيل بفتح الهمزة ﴿شطأه﴾ فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ وقرئ شطأه بفتح الطاء وشطأه بتخفيف الهمزة وشطاءه بالمدّ وشطه بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى ما فيها وشطوه بقلبها واوًا ﴿فآزره﴾ من المؤازرة وهي المعاونة وعن الأخفش أنه أفعل وقرئ فأزره بالتخفيف والتشديد أي فشدّ أزره وقوّاه ومن جعل آزر أفعل فهو في معنى: القراءتين ﴿فاستغلظ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ ﴿فاستوى على سوقه﴾، فاستقام على قصبه جمع ساق وقيل مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعن عكرمة أخرج شطأه بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم لأنّ النبي ﷺ قام وحده، ثم قوّاه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرّاع.

فإن قُلْتَ: قوله ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ تعليل لماذا **قُلْتُ:** لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة ويجوز أن يعلل به ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ لأنّ الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ومعنى ﴿منهم﴾ البيان كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾[5] عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة»[6].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحجرات مدنية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

قدمه واقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة من قَدِمَهُ إذا تقدمة في قوله تعالى: يقدم قومه ونظيرهما معنى ونقلاً سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى: ﴿لا تقدموا﴾ من غير ذكر

(1) لم يخرجه الزيلعي.
(2) أخرجه عبد الرزاق: 2/ 173، (الحديث رقم: 2941).
(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في قيام الليل (الحديث رقم: 1333).
(4) سورة الحجر، الآية: 66.
(5) سورة الحج، الآية: 30.
(6) عزاه الزيلعي لابن مردويه، وللواحدي في تفسيره. زيلعي 3/ 319.

مفعول وجهان: أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدّم، والثاني: أن لا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة، كأنه قيل: لا تقدّموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل. كقوله تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾[1] ويجوز أن يكون من قدّم بمعنى تقدّم كوجه وبين ومنه مقدّمة الجيش خلاف ساقته وهي الجماعة المتقدّمة منه. وتعضده قراءة من قرأ لا تقدَّمُوا بحذف إحدى تاءي تتقدموا إلا أن الأوّل أملأ بالحسن وأوجه وأشدّ ملاءمة لبلاغة القرآن والعلماء له أقبل. وقرئ: لا تَقْدِمُوا من القدوم أي: لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومهما ولا تعجلوا عليهما[2]. حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعًا كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً، ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. والمعنى: أن لا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين برسول الله ﷺ. وعليه يدور تفسير ابن عباس رضي الله عنه وعن مجاهد لا تفتاتوا على الله شيئًا حتى يقصه على لسان رسوله. ويجوز أن يجري مجرى قولك: سرني زيد وحسن حاله، وأعجبت بعمرو وكرمه، وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوّة الاختصاص. ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك. وفي هذا تمهيد توطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته لأنّ من أحظاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ويخافت لديه بالكلام. وقيل: بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سريةً سبعةً وعشرين رجلاً وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل إلا ثلاثة نفر نجوا، فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما وسلبوهما. ثم أتوا رسول الله ﷺ فقال: بئسما صنعتم كانا من سليم والسلب ما كسوتهما فوداهما رسول الله ﷺ[3] ونزلت أي: لا تعملوا شيئًا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ، وعن مسروق: دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه فقالت للجارية: اسقه عسلاً. فقلت: إني صائم. فقالت: قد نهى الله عن صوم هذا اليوم وفيه نزلت[4]. وعن الحسن أنّ أناسًا ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا ذبحًا آخر[5] وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله إلا أن تزول الشمس وعند الشافعي يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة. وعن الحسن أيضًا: لما استقرّ رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدؤه بالمسألة حتى يكون هو المبتدىء. وعن قتادة ذكر لنا أنّ ناسًا كانوا يقولون لو أنزل فيه كذا لكان كذا فكره الله ذلك منهم وأنزلها. وقيل: هي عامة في كل قول وفعل، ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب، وأن لا يمشي بين يديه إلا لحاجة، وأن يستأني في الافتتاح بالطعام ﴿واتقوا الله﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه. فإن التقي حذر لا يشافه أمرًا إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار فتنهاه أوّلاً عن عين ما قارفه، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها ﴿إنّ الله سميع﴾ لما تقولون ﴿عليم﴾ بما تعملون. وحق مثله أن يتقي ويراقب إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم. وذلك لأنّ في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملاً بما يحدوه عليه وارتداعًا عما يصده عنه وانتهاءً إلى كل خير.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾.

والمراد بقوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 80.

(2) قال أحمد: يريد أنه لم يذكر المفعول الذي يتقاضاه تقدّموا بإطراح ذلك المفعول، كقوله: ﴿يحيي ويميت﴾ وحلى الكلام بمجاز التمثيل، في قوله: ﴿بين يدي الله ورسوله﴾ بفائدة ليست في الكلام العريان، وهو تصوّر الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، وجعل صورة ذلك المنهي عنه، مثل: أن يجلس العبد في الجهتين = المسامتتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره، ومعناه: أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن الله ورسوله فيه، فتكونوا مقتدين فيما تأتون وتذرون بكتاب الله وسنة نبيه.

(3) قال الزيلعي: غريب ورواه الثعلبي بغير سند والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» الزيلعي 3/324.

(4) عبد الرزاق في تفسيره، الزيلعي 3/325.

(5) رواه الحاكم في المستدرك 2/462.

يكون كلامه عاليًا لكلامكم وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيته عليكم لائحة وسابقته واضحة وامتيازه عن جمهوركم كَشِيَةِ الأبلق غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم، وبقوله: ﴿**ولا تجهروا له بالقول**﴾ إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمدا في مخاطبته القول اللين المقرّب من الهمس الذي يضاد الجهر كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاملين بقوله عز اسمه وتعززوه وتوقروه، وقيل معنى: ﴿**ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾ لا تقولوا له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوّة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار وأخا السرار حتى ألقى الله[1]. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السرار لا يسمعه حتى يستفهمه[2]. وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله ﷺ، وفد، أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ[3]، وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة لأنّ ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منه وردّه إلى حدّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك. ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: أصرخ بالناس. وكان العباس أجهر الناس صوتًا. يروي أنّ غارة أتتهم يومًا فصاح العباس: يا صباحاه: فأسقطت الحوامل لشدّة صوته وفيه يقول نابغة بني جعدة:

فزجر أبي عروة والسباع إذا ... أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه، وفي قراءة ابن مسعود: لا ترفعوا بأصواتكم، والباء مزيدة محذو بها حذو التشديد في قول الأعلم الهذلي:

فرفعت عيني بالحجا ... وإلى أناس بالمناقب

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلاً أن يكون ما دون الشديد مسوغًا لهم، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا تكلم رفع صوته وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته. وعن أنس أنّ هذه الآية لما نزلت فُقِد ثابت، فتفقده رسول الله ﷺ فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال: يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط. فقال له رسول الله ﷺ: «لست هناك إنك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة». وأمّا ما يروى عن الحسن أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله ﷺ، فمحمله والخطاب للمؤمنين على أن ينهى المؤمنون ليندوح المنافقون تحت النهي ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم فيقتدي بهم ضعفة المسلمين. وكاف التشبيه في محل النصب أي: لا تجهروا له جهرًا مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيم بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها ﴿**أن تحبط أعمالكم**﴾ منصوب الموضع على أنه مفعول له وفي متعلقه وجهان: أحدهما أن يتعلق بمعنى النهي فيكون المعنى انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم: أي: لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف كقوله تعالى: ﴿يبيّن الله لكم أن تضلوا﴾[4]، والثاني: أن يتعلق بنفس للفعل ويكون المعنى أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط جعل كأنه فعل لأجله[5] وكأنه العلة والسبب في إيجاده

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ.

(2) قال الزيلعي: غريب 3/327.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: «لا ترفعوا أصواتكم» (الحديث رقم: 4846).

(4) سورة النساء، الآية: 176.

(5) قال أحمد: هو يحوم على شرعة وبيئة، إياك ورودها، وذلك أنه يعتقد أن ما دون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود في العذاب المقيم وتخرج المؤمن من اسم الإيمان ورسمه، ومعاذ الله من هذا المعتقد، فعليك بعقيدة أهل السنة الممهدة في مواضع من هذا المجموع فجدد العهد بها، وهي اعتقاد أنّ المؤمن لا يخلد في النار، وأنّ الجنة له بوعد الله حتم ولو كانت خطاياه ما دون الشرك أو ما يؤدي إليه كزبد البحر، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك، والزمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها، فيما يدعيه أنّ رفع الصوت بين يدي رسول الله ﷺ معصية لا تبلغ الشرك، وقد أخاف الله عباده من إحباطه الأعمال بها، ولو كان الإحباط مقطوعاً بنفيه لم تستقم الإخافة به، وأنى له أن يبلغ من ذلك آماله ونظم الكلام ياباه عند البصر بمعناه، فنقول: المراد في الآية: النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام،=

على سبيل التمثيل كقوله تعالى: ﴿ليكون لهم عدوًا﴾[1].

فإن قُلْتَ: لخص الفرق بين الوجهين! **قُلْتُ**: تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضمومًا إليه المفعول له كأنهما شيء واحد ثم يصب النهي عليهما جميعًا صبًا. وفي الأوّل يقدر النهي موجهًا على الفعل على حياله ثم يعلل له منهيًا عنه.

فإن قُلْتَ: بأي النهيين تعلق المفعول له؟ **قُلْتُ**: بالثاني عند البصريين مقدرًا إضماره عند الأوّل كقوله تعالى: ﴿آتوني أفرغ عليه قطرًا﴾[2] وبالعكس عند الكوفيين، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أنّ الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل، وقراءة ابن مسعود فتحبط أعمالكم أظهر نصًا بذلك لأنّ ما بعد الفاء لا يكون إلا مسببًا عما قبله فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى: ﴿فيحل عليكم غضبي﴾[3] والحبوط من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وربما هلكت. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطًا أو يلم ومن أخواته حبجت الإبل إذا أكلت العرفج فأصابها ذلك»[4]. واحبض عمله مثل أحبطه، وحبط الجرح وحبر إذا غفر وهو نكسه وترامية إلى الفساد جعل العمل السيء في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض لمن يصاب به أعاذنا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال. وقد دلت الآية على أمرين هائلين أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام وما يحبط عمله، والثاني أن في آثامه ما لا يدري أنه محبط. ولعله عند الله كذلك فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ودرب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وانٍ عنه. والمعنى أنهم صبر على التقوى أقوياء على احتمال مشاقها أو وضع الامتحان موضع المعرفة، لأنّ تحقق الشيء باختباره كما يوضع الخبر موضعها فكأنه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى وتكون اللام متعلقة بمحذوف، واللام هي التي في قولك أنت لهذا الآخر أي: كائن له ومختص به قال:

أنت لها أحمد من بين البشر ... أعداء من لليعملات على الوجى

وهي مع معمولها منصوبة على الحال، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى أي لتثبت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون، لأنّ حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. وقيل: أخلصها للتقوى من قولهم: امتحن الذهب وفتنه إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاه. وعن عمر رضي الله عنه: اذهب الشهوات عنها والامتحان افتعال من محنه وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد. قال أبو عمرو: كل شيء جهدته فقد محنته وأنشد:

أتت رذايا باديا كلالها ... قد محنت واضطربت آطالها

قيل: أنزلت في الشيخين رضي الله عنهما لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار. وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسمًا لأنّ المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معًا، والمبتدأ اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهمًا أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتد . والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء.

والوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ومن لابتداء الغاية وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان.

فإن قُلْتَ[5]: فرق بين الكلامين بين ما ثبتت فيه وما

= والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق، فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أو لا، حماية للذريعة وحسماً للمادة، ثم لما كان هذا المنهي عنه وهو رفع الصوت منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً، وخوّف أن يقع فيهما هو محبط للعمل، وهو البالغ حدّ الإيذاء، إذ لا دليل ظاهر يميزه وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر، وقعت الإشارة بقوله: ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ موقع إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون كفراً محبطاً قطعاً، وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعاً، فعلى كلا حاليه الإحباط به محقق، إذاً فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أنّ الإحباط ثابت مطلقاً والله أعلم. وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين كلتاهما صحيحة، إحداهما: أنّ رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن، حتى إنّ الشيخ ليتاذى برفع التلميذ صوته بين يديه، فكيف برتبة النبوّة وما يستحقه من الإجلال والإعظام، المقدمة الأخرى، أنّ إيذاء النبي ﷺ كفر، وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا، وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر، والله الموفق.

(1) سورة القصص، الآية: 8.

(2) سورة الكهف، الآية: 96.

(3) سورة طه، الآية: 81.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهد الدنيا (الحديث رقم: 121 ـ 1052).

(5) قال أحمد: ولقد اغتر بعضهم في تبكيت بني تميم، بما لا تساعده عليه الآية، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له، وقد=

تسقط عنه! **قُلْتُ:** الفرق بينهما أنّ المنادى والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء، وفي الثاني لا يجوز لأنّ الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد. والذي يقول ناداني فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ولا دبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقًا بغير تعيين واختصاص. والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البرّ والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة دون جهة. والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة وهي فعلة بمعنى مفعولة كالغرفة والقبضة وجمعها الحجرات بضمتين والحجرات بفتح الجيم والحجرات بتسكينها وقرئ بهنّ جميعًا. والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة، ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمته، والفعل وإن كان مسندًا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم وكان الباقون راضين فكأنهم تولوه جميعًا. فقد ذكر الأصم أنّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة، ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدًا إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإنّ القلة تقع موقع النفي في كلامهم. وروي أن وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد فجعلوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا، فاستيقظ فخرج ونزلت. وسئل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»[1] فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كنايةً عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه، ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم، ومنها التعريف باللام دون الإضافة، ومنها أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهوينًا للخطب على رسول الله ﷺ وتسليةً له وإماطةً لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم وهلم جرا من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمّل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمةً على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كأن الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره، ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدرًا، لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه. لأنّ من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغًا. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب كما يحكى عن أبي عبيد ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال: ما دققت بابًا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾.

﴿أنهم صبروا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية لأنّ المعنى ولو ثبت صبرهم والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾[2] وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس وهو حبس فيه شدّة ومشقة على المحبوس. فلهذا قيل للحبس على اليمين أو القتل صبر، وفي كلام بعضهم الصبر مرّ لا يتجرّعه إلا حرّ.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين **﴿حتى تخرج﴾** وإلى أن تخرج؟ **قُلْتُ:** إنّ حتى مختصة بالغاية المضروبة. تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها أو صدرها لم يجز. وإلى عامّة في كل غاية فقد أفادت حتى بوضعها أنّ خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم فما كان لهم أن يقطعوا أمرًا دون الانتهاء إليه.

فإن قُلْتَ: فأي فائدة في قوله: **﴿إليهم﴾**؟ **قُلْتُ:** فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم **﴿لكان خيرًا لهم﴾** في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو وإما ضمير مصدر صبروا كقولهم: من كذب كان شرًا له **﴿والله غفور رحيم﴾** بليغ الغفران والرحمة واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا. بعث رسول الله ﷺ الوليد بن

= سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم»، وعلى الجملة: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوق في حق أمة عظيمة؛ لأنّ واحداً منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء، فقد ورد أن المنادي له عليه السلام هو الأقرع، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه=

= الكتب الصحاح.

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول، أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل غِفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيء (الحديث رقم: 198 ـ 2525).

(2) سورة الكهف، الآية: 28.

عقبة أخا عثمان لأمّه وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعًا ثم قال: «هل أزيدكم». فعزله عثمان مصدّقاً إلى بني المصطلق وكانت بينه وبينهم إحنة فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة: فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم، فبلغ القوم فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم فقال: لتنتهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه. وقيل: بعث إليه خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع[1]. وفي تنكير الفاسق والنبأ شياع في الفساق والإنباء كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ[2] فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه والفسوق الخروج من الشيء والانسلاخ منه، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها ومن مقلوبه فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، ومن مقلوبه أيضًا فقست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكه مغتصبًا له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال رؤبة:

فواسقًا عن قصدها جوائرا

وقرأ ابن مسعود: فتثبتوا، والتثبت والتبين متقاربان وهما طلب الثبات والبيان والتعرّف، ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾.

﴿أن تصيبوا﴾ مفعول له أي كراهة إصابتكم **﴿قومًا بجهالة﴾** حال كقوله تعالى: ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم﴾[3] يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح بمعنى الصيرورة. والندم ضرب من الغم وهو أن تغتمّ على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام لأنه كلما تذكر المتندّم عليه راجعه من الندام وهو لزام الشريب ودوام صحبته، ومن مقلوباته أدمن الأمر أدامه ومدن بالمكان أقام به ومنه المدينة، وقد تراهم يجعلون الهمّ صاحبًا ونجيًا وسميرًا وضجيعًا وموصوفاً بأنه لا يفارق صاحبه.

الجملة المصدّرة بلولا تكون كلامًا مستأنفًا لأدائه إلى تنافر النظم[4] ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع أو البارز المجرور، وكلاهما مذهب سديد. والمعنى أنّ فيكم رسول الله ﷺ على حالة يجب عليكم تغييرها أو أنتم على حالةٍ يجب عليكم تغييرها، وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعن لكم من رأي واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه المحتذى على أمثلته. ولو فعل ذلك **﴿لعنتم﴾** أي: لوقعتم في العنت والهلاك، يقال: فلان يتعنت فلانًا أي: يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك، وقد أعنت العظم إذا هيض بعد الجبر، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وإن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وإن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾** أي: إلى بعضكم ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة التي لا يفطن لها إلا الخواص، وعن بعض المفسرين: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقوله: **﴿أولئك هم الراشدون﴾** والخطاب لرسول الله ﷺ أي: أولئك المستثنون هم الراشدون بصدق ما قلته.

فإن قُلْتَ: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ **قُلْتُ:** القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لآرائهم فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه.

(1) قال أحمد: تسامح بلفظ الشياع، والمراد الشمول؛ لأنّ النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم، كما إذا وقعت في سياق النفي والله أعلم.

(2) أخرجه ابن جرير وعبد الرزاق في تفسيره، ذكره في كتاب: الدر المنثور، لخرج الزيلعي 3/332.

(3) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(4) قال أحمد: من جملة هنات المعتزلة تلبهم على عثمان رضي الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قتلته، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه ما أورده الزمخشري في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعلة الشنعاء عوضاً عن = سعد بن أبي وقاص أحد الصحابة، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات، فمنها: مطالبتهم النبي ﷺ باتباع آرائهم التي من جملتها: تصديق الوليد في الإيقاع ببني المصطلق، فإذا ضممت هذه النبذة التي ذكرها إرسالاً إلى ما علمت من معتقده، تبين لك من حاله أعني الزمخشري ما لا أطيق التصريح به، لأنه لم يصرح، وإنما سلكنا معه سبيل الإنصاف، وبحجة الانتصاف نص بنص وتلويح بتلويح، فنسأل الله العظيم بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين أن يرضى عن صحابه أجمعين وعنا بهم آمين.

فإن قُلْتَ: فلم قيل يطيعكم دون أطاعكم؟ **قُلْتُ:** للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه بدليل قوله: في كثير من الأمر كقولك: فلان يقري الضيف ويحمي الحريم. تريد أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرًّا.

فإن قُلْتَ: كيف موقع لكن وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيًا وإثباتًا! **قُلْتُ:** هي مفقودة من حيث اللفظ حاصلة من حيث المعنى، لأن الذين حبّب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدّم ذكرهم فوقعت لكن في حاق موقعها من الاستدراك. ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفق[1] وسبيله الكناية كما سبق، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبى عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله وحمل الآية على ظاهرها يؤدّي إلى أن يثنى عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

فإن قُلْتَ: فإن العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه وذلك فعل الله، وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود! **قُلْتُ:** الذي سوّغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء ووسامة المنظر في الغالب يسفر عن مخبر مرضي وأخلاق محمودة. ومن ثم قالوا أحسن ما في الدميم وجهه، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ولكن لدلالته على غيره. على أن من محققه الثقات وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر المدح على النعت بأمّهات الخير وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة وما يتشعب منها ويرجع إليها. وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاد وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطًا ومخالقةً عن المعقول. و ﴿الكفر﴾ تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالجحود و ﴿الفسوق﴾ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكبائر. ﴿والعصيان﴾ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي العائد، واعتصت النواة اشتدت، والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخر. قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وغير مقلد وموشمات صلين الضوء من صم الرشاد

فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾.

و﴿فضلاً﴾ مفعول له أو مصدر من غير فعله.

فإن قُلْتَ: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد[2] فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتخذ الفاعل؟ **قُلْتُ:** لما وقع الرشد عبارةً عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندةً إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب. عن الراشدون ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى والجملة التي هي أولئك هم الراشدون اعتراض أو عن فعل مقدر كأنه قيل: جرى ذلك أو

---

(1) قال أحمد: تلجلج والحق أبلج، وزاغ والسبيل منهج، وقاس الخلق بالواحد الحق وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر اغتراراً بحال اعتقد اطراده في الشاهد، وهو أنّ الإنسان لا يمدح بفعل غيره، وقاس الغائب على الشاهد تحكماً وتغلغل باتباع هوى معجماً، فجره ذلك بل جرّاه على تأويل الآية وإبطال ما نكرته من نسبة تحبيب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته، وجعله مجازاً؛ لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الإيمان مضافاً إلى الله تعالى، والعبد إذاً ممدوح بما ليس من فعله وهذا عنده محال، فأتبع الآية رأيه الفاسد فإذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوحدانية والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء، وطولب بإبقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل، فإنه يتمسك في تأويلها بالحبال المذكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد مما له إدلاء إلى تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالذي نعتقده ثبتنا الله على الحق أن الله تعالى منح ومدح وأعطى وامتن، فلا موجود إلا الله سفاته وأفعاله، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلاً لبعض، فسمى المحل فاعلاً والحال فعلاً، فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد، ولا بدّ أن أطارحه القول، فأقول: أخبرني عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم، هل بمكتسب أم بغير مكتسب؟ فلا يسعه أن يقول، إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبوه بل بما وهبه إياهم فانهبوه، وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوّة فقد خرج عن أهل الملة وانحرف عن أهل القبلة، =

= وهذه النبذة كفاية إن شاء الله تعالى.

(2) قال أحمد: أورد الإشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده، ونحن بنينا على ما بينا أنّ الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أنّ الإشكال وارد نصاً على تقريرنا على غير الحدّ الذي أورده عليه الزمخشري، بل من جهة أنّ الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم ومما يعهدونه أنّ الفاعل من نسب إليه الفعل، وسواء كان حقيقة أو مجازاً حتى يكون زيد فاعلاً وانقض الحائط وأشباهه، كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه، فلك في الجواب عنه طريقان، إما جواب الزمخشري، وإما أمكن منه وأبين وهو أنّ الرشد هنا يستلزم كونه راشداً إذ هو مطاوعه؛ لأنّ الله تعالى أرشدهم فرشدوا وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة، وهو عكس قوله: ﴿يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ فإن الإشكال بعينه وارد فيها، إذ الخوف والطمع فعلهم، أي: منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون والفعل الأوّل لله تعالى؛ لأنه مريهم ذلك والجواب عنه أنهم مفعولون في معنى الفاعلين بواسطة استلزام المطاوعة؛ لأنه إذا أراهم فقد رأوا وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصححت الكلام ههنا بتقدير المفعول فاعلاً، وعكسه آية الحجرات إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولاً، وهذا من دقائق العربية، فتأمله والله الموفق.

كان ذلك فضلاً من الله، وأما كونه مصدرًا من غير فعله فأن يوضع موضع رشدًا لأنّ رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام ﴿والله عليم﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم التمايز والتفاضل ﴿حكيم﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وقف رسول الله ﷺ على مجلس الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك عبد الله بن أبيّ بأنفه وقال: خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه. فقال عبد الله بن رواحة: والله إنّ بول حماره لأطيب من مسكك»[1]. وروي: «حماره أفضل منك، وبول حماره أطيب من مسكك»[2]. ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استبّا وتجالدا، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج فتجالدوا بالعصي، وقيل بالأيدي والنعال والسعف. فرجع إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم ونزلت. وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي الاستطالة والظلم وإباء الصلح، والفيء الرجوع وقد سمي به الظل والغنيمة، لأنّ الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين. وعن أبي عمرو: حتى تفي بغير همز ووجهه أنّ أبا عمر خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة فظنه قد طرحها.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿اقتتلوا﴾، والقياس اقتتلتا[3]؟ كما قرأ ابن أبي عبلة، أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين! **قُلْتُ:** هو مما حمل على المعنى دون اللفظ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله حتى يفيئوا إلى أمر الله، فإن فاؤا فخذوا بينهم بالقسط وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل. قاله بعد أن اعتزل، فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت، وإذا تولت عمل بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمّة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤها»[4]، ولا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلهما، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة. فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، واطلاعهما على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكله ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين، وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغى عليها بالقسط والعدل، وفي ذلك تفاصيل إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت بعد الفيئة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله. فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، وأمّا قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنه عند الجميع فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى: ﴿فاصلحوا بينهما بالعدل﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد والذي ذكروا أنّ الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.

فإن قُلْتَ: لم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأوّل؟ **قُلْتُ:** لأنّ المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معًا أو راكبتي شبهة. وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرتا. فحينئذ تجب المقاتلة وأما الضمان فلا يتجه وليس كذلك إذا بغت إحداهما فإنّ الضمان متجه على الوجهين المذكورين ﴿واقسطوا﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين، والقول فيه مثله في الأمر باتقاء الله على عقب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط بالفتح الجور من القسط وهو اعوجاج في الرجلين، وعود قاسط يابس، وأقسطته الرياح. وأمّا القسط بمعنى العدل فالفعل منه أقسط وهمزته للسلب أي: أزال القسط وهو الجور.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾.

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: في الإصلاح بين الناس (الحديث رقم: 2691)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (الحديث رقم: 1 7 ـ 1799).

(2) تقدم تخريجه سابقًا.

(3) قال أحمد: قد تقدّم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ من بعد الحمل على معناها، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله: ﴿اقتتلوا﴾، ثم على اللفظ بقوله: ﴿بينهما﴾، فلا يعتقد أن المقول في من مطرد في هذا؛ لأنّ المانع لزوم الإجمال والإبهام بعد التفسير وههنا لا يلزم ذلك، إذ لا إبهام في الطائفة بل لفظها مفرد أبداً، ومعناها جمع أبداً وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعاً ومرة مفرداً فتأمله، والله الموفق.

(4) رواه ابن أبي شيبة 8/389 في كتاب: الأدب، باب: النهي عن الوقيعة. ورواه الحاكم في المستدرك 2/155.

أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها. ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته، ويركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح وبثًا للسفراء بينهما إلى أن يصادف ما وهي من الوفاق من يرقعه وما استشن من الوصال من يبله، فالأخوة في الدين أحق بذلك وبأشدّ منه، وعن النبي ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره. ثم قال: احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل»[1].

فإن قُلْتَ: فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع؟ **قُلْتُ:** لأنّ أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين. وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج. وقرئ بين إخوتكم وإخوانكم والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع وأحسموه. ﴿**واتقوا الله**﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه. وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم واشتمال رأفته عليكم حقيقاً بأن تعقدوا به رجاءكم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١.

القوم الرجال خاصة لأنهم القوّام بأمور النساء. قال الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾[2] قال عليه الصلاة والسلام: «النساء لحم على وضم إلا ما نب عنه»[3]. والذابون هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم كصوّم وزوّر في جمع صائم وزائر، أو تسمية بالمصدر عن بعض العرب إذا أكلت طعامًا أحببت نومًا وأبغضت قومًا أي: قيامًا. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية وفي قول زهير:

أقوم آل حصن أم نساء

وأمّا قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن، وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين أن يراد لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات[4] من بعض، وأن تقصد إفادة الشياع وأن تصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية. وإنما لم يقل: رجل من رجل ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلامًا[5] بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية واستفظاعًا للشأن الذي كانوا عليه، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله: ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر. وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به فيؤدي ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقومًا. وقوله تعالى: ﴿**عسى أن يكونوا خيرًا منهم**﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه[6]، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحدٍ أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرًا من الساخر؛ لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب وعلمهم من ذلك بمعزل فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبق في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا وأتقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله. ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: «لو رأيت رجلاً يرضع عنزًا فضحكت منه، خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه». وعن عبد الله بن مسعود «البلاء موكل بالقول: ولو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبًا»[7] وفي قراءة عبد الله: عسوا أن يكونوا، وعسين أن يكن. فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾ وعلى الأولى التي لا خبر لها كقوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا﴾. واللمز الطعن والضرب باللسان. وقرئ ولا تلمزوا بالضم والمعنى: وخصوا أيها

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (الحديث رقم: 2442)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره... (الحديث رقم: 32 ـ 2564).

(2) سورة النساء، الآية: 34.

(3) قال الزيلعي غريب مرفوعًا، ورواه موقوفًا ابن المبارك على عمر بن الخطاب وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث زيلعي 3/ 337.

(4) قال أحمد: ولو عرف فقال: لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض، = لكانت كل جماعة منهم منهية ضرورة شمول النهي، ولكن أورد الزمخشري هذا، وإنما أراد أن في التنكير فائدة أن كل جماعة منهية على التفصيل في الجماعات، والتعرض بالنهي لكل جماعة على الخصوص، ومع التعريف تحصيل النهي، لكن لا على التفصيل بل على الشمول، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع.

(5) قال أحمد: وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه.

(6) قال أحمد وهو من الطراز الأول.

(7) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 8/ 390 في كتاب: الأدب في النهي عن الوقيعة.

المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»[1]. وعن الحسن رضي الله عنه في ذكر الحجاج: أخرج إلي بنانًا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول: يا أبا سعيد، يا أبا سعيد. وقال لما مات: اللهم أنت أمته، فاقطع سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي. فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، الصلاة أيها الرجل. هيهات دون ذلك السيف والسوط، وقيل: معناه لا يعب بعضكم بعضًا لأنّ المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه. وقيل: معناه لا تفعلوا ما تلمزون به لأنّ من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة. والتنابز بالألقاب التداعي بها، تفاعل من نبزه وبنو فلان يتنابزون ويتنازبون، ويقال: النبز والنزب لقب السوء والتلقيب المنهي عنه. وهو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيرًا به وذمًّا له وشينًا، فأما ما يحبه مما يزينه وينوه به فلا بأس به. روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه»[2] ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكنى فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. روي عن الضحاك أنّ قومًا من بني تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي ذرّ وسالم مولى حذيفة فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة. وعن ابن عباس أنّ أمّ سلمة ربطت حقويها بسبيبة، وسدلت طرفها خلفها وكانت تجرّه. فقالت عائشة لحفصة: انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. وعن أنس: عيرت نساء رسول الله ﷺ أمّ سلمة بالقصر. وعن عكرمة عن ابن عباس: «أنّ صفية بنت حيي أتت رسول الله ﷺ فقالت: إنّ النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها رسول الله ﷺ: هلا قلت: إن أبي هارون، وإنّ عمي موسى، وإنّ زوجي محمد»[3] وروي أنها «نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ[4] ليسمع. فأتى يومًا وهو يقول: تفسحوا لي حتى أنتهي إلى رسول الله ﷺ فقال الرجل: تنح. فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة، يريد ما كان يعيريها في الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت. فقال ثابت: لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبداً» **﴿الاسم﴾** ههنا بمعنى الذِّكر من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته وحقيقته ما سما من ذكره وارتفع بين الناس. ألا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره كأنه قيل: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين[5] بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق. وفي قوله: **﴿بعد الإيمان﴾** ثلاثة أوجه: أحدهما استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة، والثاني أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي يا فاسق، فنهوا عنه. وقيل لهم: بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه. والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنابز، والثالث أن يجعل من فسق غير مؤمن كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة.

يقال: جنبه الشر إذا أبعده عنه، وحقيقته جعله منه في جانب فيعدي إلى مفعولين. قال الله عزّ وجل: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾[6] ثم يقال في مطاوعه: اجتنب الشر فتنقص المطاوعة مفعولاً والمأمور باجتنابه هو بعض الظنّ. وذلك البعض موصوف بالكثرة الا ترى إلى قوله:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾. فإن قلت: بين الفصل بين كثير حيث جاء نكرة، وبينه لو جاء معرفة؟ **قلت:** مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية، وإنّ في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين، لئلا يجترئ أحد

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9667).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في مقاربة وموادّة أهل الدين (الحديث رقم: 8772).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (الحديث رقم: 7211)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل أزواج النبي ﷺ (الحديث رقم: 3892).

(4) قال الزيلعي غريب 3/342 وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 221.

(5) قال أحمد: أقرب الوجوه الثلاثة ملائمة لقاعدة أهل السنة وأولاها = هو أوّلها، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق وهو مستقيم؛ لأن الاسم هو المسمى، ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك انحرافاً إلى قاعدة يصرف الذم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن، تحوماً على أن الاسم التسمية، ولا شك أنّ صرف الذم إلى نفس الفسق أولى، وأما الوجه الثاني: فادخله ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحاً، وأما الثالث: فليتم له أنّ الفاسق غير مؤمن، وكلا القاعدتين مخالف للسنة فاحذرهما، وبالله التوفيق. ولقد كشف الله لي عن مقاصده حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة، إلا إذا أدركها الحق فكلمها، ولله الحمد.

(6) سورة إبراهيم، الآية: 35.

على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة مع استشعار للتقوى والحذر ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطًا بما يكثر منه دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبًا وما اتصف منه بالقلة مرخصًا في تظننه، والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أنّ كل ما لم تعرف له أمارةٌ صحيحة وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء»[1]. وعن الحسن: كنا في زمان الظنّ بالناس حرام، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت وظنّ بالناس ما شئت. وعنه: لا حرمة لفاجر. وعنه أنّ الفاسق إذا اظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب. وقد روي: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»[2]. والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ومنه قيل لعقوبته، الآثام فعال منه كالنكال والعذاب والوبال قال:

لقد فعلت هذي النوى بي فعلة أصاب النوى قبل الممات أثامها

والهمزة فيه عن الواو كأنه يثم الأعمال أي: يكسرها بإحباطه. وقرئ: ﴿ولا تحسسوا﴾ بالحاء والمعنيان متقاربان. يقال: تحسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه تفعل من الجنس كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس، لما في اللمس من الطلب. وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى: ﴿وأنا لمسنا السماء﴾[3] والتحسس التعرف من الحس ولتقاربهما قيل: لمشاعر الإنسان: الحواس بالحاء والجيم، والمراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه. وعن مجاهد: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله. وعن النبي ﷺ «أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهنّ قال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»[4]. وعن زيد بن وهب: قلنا لابن مسعود هل لك في الوليد بن عقبة بن أبي معيط تقطر لحيته خمرًا. فقال ابن مسعود: «إنا قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شيء أخذنا به»[5]. غابه واغتابه كغاله واغتاله، والغيبة من الاغتياب كالغيلة من الاغتيال وهي ذكر السوء في الغيبة. سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[6]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس ﴿أيحب أحدكم﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً، ومنها إن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتًا، وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفةً منتّنةً أن تأكل منها، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي، وانتصب ﴿ميتًا﴾ على الحال من اللحم، ويجوز أن ينتصب عن الأخ وقرئ ميتًا، ولما قرّرهم عز وجل بأنّ أحدًا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿فكرهتموه﴾ معناه فقد كرهتموه واستقرّ ذلك وفيه معنى الشرط أي: إن صحّ هذا فكرهتموه وهي إلقاء الفضيحة أي: فتحققت بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه كراهتكم له وتقذركم منه. فليتحقق أيضًا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين، وقرئ فكرهتموه أي: جبلتم على كراهته.

فإن قُلْتَ: هلا عدى بإلى كما عدّى في قوله: وكرّه إليكم الكفر وأيهما القياس! **قُلْتُ:** القياس تعدّيه بنفسه لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه تقول: كرهت الشيء فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول، وأما تعدّيه بإلى فتأوّل وإجراء لكره مجرى بغض لأنّ بغض منقول من بغض إليه الشيء فهو بغيض إليه كقولك: حب إليه الشيء فهو حبيب إليه. والمبالغة في الثواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوًا عنه بالتوبة، أو لأنه بليغ في قبول التوبة منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه. والمعنى واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين. وعن ابن عباس «أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوي لهما طعامهما فنام عن شأنه يومًا فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغي لهما إدامًا وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان بذلك.

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفسق، باب: حرمة أم المؤمنين وماله (الحديث رقم: 3932).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9664).

(3) سورة الجن، الآية: 8.

(4) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، باب: الغيبة (الحديث رقم: 5763)، وأخرجه الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن (الحديث رقم: 2032)، وأخرجه أبو داود في كتاب: = الأدب، باب: في الغيبة (الحديث رقم: 4880)، وأبو يعلى في (الحديث رقم: 7423).

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في النهي عن التجسس (الحديث رقم: 3890)، وابن أبي شيبة في مصنفه 9/86 في كتاب: الأدب، باب: في الستر على الرجل الخ...

(6) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تحريم الغيبة (الحديث رقم: 70 ـ 2589).

فعند ذلك قالا لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما فقالا: ما تناولنا لحمًا. فقال: إنكما قد اغتبتما»[1]. فنزلت.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾.

﴿من ذكر وانثى﴾ من آدم وحوّاء وقيل: خلقنا كل واحد منكم من أب وأمّ فما منكم أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب. والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفضائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ العباس فصيلة وسميت الشعوب لأنّ القبائل تشعبت منها. وقرئ: لتتعارفوا ولتعارفوا بالإدغام ولتعرفوا أي: لتعلموا كيف تتناسبون وليتعرفوا. والمعنى أنّ الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض فلا يعتزى إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** وقرئ: أنّ بالفتح كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم، وعن النبي ﷺ أنه طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجلان، مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. ثم قرأ الآية،[2] وعنه عليه السلام: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله»[3]. وعن ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وعن يزيد بن شجرة: «مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلامًا أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ، فاشتراه رجل، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة، ففقده يومًا، فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال: هو لما به. فجاءه وهو في ذمائه فتولى غسله ودفنه»[4]. فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم فنزلت.

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾.

الإيمان هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس، والإسلام الدخول في السلم والخروج من أن يكون حربًا للمؤمنين بإظهار الشهادتين ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله تعالى: **﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾** والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أو قل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم **قُلْتُ**[5]: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً ودفع ما انتحلوه، فقيل: قل لم تؤمنوا وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرّح بلفظه فلم يقل: كذبتم ووضع لم تؤمنوا الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبّه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين: أولئك هم الصادقون. تعريضًا بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح. واستغنى بالجملة التي هي لم تؤمنوا عن أن يقال: لا تقولوا: آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدّرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم ليكون خارجًا مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم: آمنا كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتد به.

فإن قُلْتَ: قوله: **﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** بعد قوله تعالى: **﴿قل لم تؤمنوا﴾** يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجدّدة! **قُلْتُ:** ليس كذلك فإنّ فائدة قوله: **﴿لم تؤمنوا﴾** هو تكذيب دعواهم وقوله: **﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** توقيت لما أمروا به أن يقولوه كأنه قيل لهم ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لالسنتكم لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قولوا،

---

(1) قال الزيلعي: غريب وبمعناه ما رواه أبو القاسم الأصبهاني في كتاب: الترغيب والترهيب. وذكره الثعلبي ثم البغوي بلفظ المصنف من غير سند 3/349.

(2) أخرجه الترمذي في السنن كتاب: التفسير، باب: ومن سورة الحجرات (الحديث رقم: 3270) وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث رقم: 5116).

(3) رواه الحاكم في المستدرك 4/270.

(4) ذكر الواحدي في أسباب النزول ص 222.

(5) قال أحمد: ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة، قوله تعالى:= ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ ثم قال: ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ ولما كان مؤدّى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي ﷺ، قدّم على ذلك مقدّمة تلخص المقصود وتخلصه من حوادث الوهم ونوائبه، فقال بين الكلامين: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما دعوه من شهادة قلوبهم بالحق؛ لأنّ ذلك حقيقة الشهادة لا أنهم كذبوا في أنّ رسول الله ﷺ رسول من الله، وكان المخلص من ذلك قوله جلّ وعلا: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾.

وما في لما من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿لا يلتكم﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم. يقال: آلته السلطان حقه أشدّ الألت، وهي لغة غطفان ولغة أسد وأهل الحجاز لاته ليتا، وحكى الأصمعي عن أمّ هشام السلولية أنها قالت: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات، وقرئ: باللغتين لا يلتكم ولا يالتكم ونحوه في المعنى فلا تظلم نفس شيئًا. ومعنى طاعة الله ورسوله أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق، ويعقدوا قلوبهم على الإيمان، ويعملوا بمقتضياته، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ووهب لهم مغفرته وأنعم عليهم بجزيل ثوابه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ نفرًا من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادة وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والذراري، يريدون الصدقة ويمنون عليه فنزلت.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾.

ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لمن صدّقوه واعترفوا بأنّ الحق منه.

فإن قُلْتَ: ما معنى ثم هنا وهي للتراخي وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنًا للإيمان لأنه وصف فيه لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب! **قُلْتُ:** الجواب على طريقين: أحدهما أنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر، فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرًا غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمرّ على ذلك راكبًا رأسه لا يطلب له مخرجًا. فوصف المؤمنون حقًا بالبعد عن هذه الموبقات ونظيره قوله: ﴿ثم استقاموا﴾[1] والثاني أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الإيمان تنبيهًا على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارًا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًا جديدًا. ﴿وجاهدوا﴾ يجوز أن يكون المجاهد منويًا وهو العدوّ المحارب أو الشيطان أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس الغزو وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال نحو ما صنع عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى ﴿أولئك هم الصادقون﴾ الذين صدقوا في قولهم آمنا ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجدّ وثبات.

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾.

يقال: ما علمت بقدومك أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: ﴿أتعلمون الله بدينكم﴾ وفيه تجهيل لهم. يقال: منَّ عليه بيد أسداها إليه كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه، واشتقاقها من المن الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير من غير أن يعمد لطلب مثوبة، ثم يقال: منّ عليه صنعه إذا اعتده عليه منة وإنعامًا، وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة وذلك أنّ الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلامًا ونفى أن يكون كما زعموا إيمانًا. فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام: إنّ هؤلاء يعتدّون عليك بما ليس جديرًا بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام. فقل لهم: لا تعتدّوا عليّ إسلامكم أي: حدثكم المسمى إسلامًا عندي لا إيمانًا. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صحّ زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف ما لا يخفى على المتأمل وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان. فلله المنة عليكم. وقرئ: إن هداكم بكسر الهمزة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: إذ هداكم.

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾.

وقرئ: ﴿تعملون﴾ بالتاء والياء وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم. يعني:

أنه عزّ وجل يعلم كل مستتر في العالم، ويبصر كل عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم لا يخفى عليه منه شيء. فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ونلك أنّ حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه»[2].

---

(1) سورة فصلت، الآية: 30.

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير والزيلعي 3/ 353.